لفـظ « الأم »
وتجذر بنيته في لغات البشر

الدكتور/ عمـر الدقاق
أستاذ في قسم اللغة العربية ـ جامعة قطر

قلّما عرفت لغات أهل الأرض لفظاً مشتركاً فيما بينها يضارع كلمة « الأم » . ففي بنية هذا اللفظ ، حيث حرف الميم هو العمدة ، يلاحظ أن هذا الحرف أيضاً قاسم مشترك بين كثير من لغات الأمم ، يدور على ألسنتها ولاسيما على ألسنة طفالها على الدوام ، مع اختلاف يسير في نطق سائر حروف الكلمة .

ومن المرجح ، وفقاً لمعطيات علوم الصوتيات واللسانيات وعلم نفس الطفل والأنتروبولوجيا ، أن ما فطر عليه الطفل البشري في أي مكان من هذه الدنيا ، من مناغاته لأمه بصوت : « ما » أو « مو » أو « مام » أو « مم » ، أو « مامي » أو « ماما » . . أو ما كان من هذا القبيل ، إنما هو أصل اطلاق تسمية « الأم » على ذلـك الكائن الإنساني الذي هو الوالدة عبر العصور ، وعلى اختلاف الأماكن وتباين الأقوام .

ويقسم بعض الباحثين في علم اللغة حروف الهجاء التي نطقت بها الأقوام الغابرة إلى ثلاث فئات : هيجانية وايمائية وايحائية . وهذا التقسيم ينطبق على اللغة العربية[1] .

فالحـروف الهيجـانية هي الهمـزة والألف اللينـة والواو والياء ، أي حروف العلة . وهي أصـوات أصـلاً ، ومتوارثة منذ أزمان موغلة في القدم . وتتوافق نهاياتها مع نهايات العصر الجليدي الأخير ، أي حوالي الألف الثاني عشر قبل الميلاد .

« فالهمزة انفجار صوتي ، ولذا ظل للنداء ، والواو إلى فوق ، والياء إلى تحت . . . [2] »

والحروف الايمائية ، أو في اصطلاح أدق دلالةً ، الشفوية ، هي الميم والفاء والبـاء . . . ، وهي موروثة من المرحلة التالية المنتهية حوالي الألف التاسع أو الثامن قبل الميلاد ، حين كان الولاء والزعامة للمرأة الأم في طور زراعة الأرض . وكان لزاماً على الرجل عهدئذ أن يعبد المرأة واعتباره اياها ربة للخصب .

أما الأحرف الايحائية فهي الحروف الباقية التي تمخضت عنها المرحلة الرعوية الواقعة في حقبة الألف التاسع أو الثامن قبل الميلاد ، حين تحول الولاء بعد ذلك إلى الرجل .

وما نحن بصدده في هذا المجال متصل بالحقبة المتوسطة التي توصل الإنسان القديم خلالها إلى زمرة أولى من الحروف الصامتة وهي حروف الميم والفاء والباء التي يمكن تسميتها بالحروف الايمائية .

(١)

وإذا عدنـا إلى اللغـة السنسكريتية القديمة ، وهي الأصل البعيد لفصيلة اللغـات الهنـدية ـ الأوروبية تبـين لنـا أن الجـذر (ما MA) يعني فيهـا فعـل (الصنع) ، وهو يدل على معاني التكوين ، والعمل ، والايجاد ، والخلق . . . وهذا الفعل (صنع) انما يتضمن في الحقيقة الدلالة الأساسية لمهمة الأم في الحياة ووظيفتهـا البيولـوجية في الـوجود ، وهي مهمة الانجاب ، أي صنع الأطفال وتكوين النشء واستمرار النوع .

وهذا الجذر نفسه (الميم M) مشترك أيضاً في مجموعة اللغات السامية القديمة ، مثل كلمة (أم) العربية ، و(ايما EMA) الآرامية ، و(ايم EM) العبرية . . . كما ظهر هذا الجذر في العديد من اللغات ، ولاسيما فصيلة اللغات الهندية ـ الأوروبية .

فمن بين اللغـات الهنـدو ـ أوربية يطلق على الأم في اللغـة الفـارسية لفظ

(مادر) . كذلك يطلق عليها في الألمانية لفظ MUTTER) . وفي الانجليزية (ماذر MOTHER) ، وفي الأرمنية ، وهي أيضاً من زمرة اللغات الهندو ـ أوروبية (مايرMAYER) .

وإذا تتبعنا على صعيد آخر اللفظ الدال على معنى « الأم » في مجموعة اللغات السلافية مثلا وجدنا أن الجذر (م M) يشكل فيها أيضاً الأساس البنيوي لكلمة الأم ، وتلفظ مات (MAT) باللغة الروسية ، وفي البولونية : (MATKA) .

أما في الأصل اللاتيني فتدل على معنى الأم كلمة (ماتر MATER) . ثم سرت هذه الكلمة إلى سائر لغات الأسرة اللاتينية ، فأصبحت تلفظ بالبرتغالية (مادري MADRE) ، وفي الأسبانية أيضاً (مادري MADRE) ، وفي الايطالية (مادري MADRE) ، وفي الفرنسية (ماتر MATER) وأيضاً (ميرMERE) [٣]

وهذا كله يرجح أن حرف الميم M هو الأصل الثابت الراسخ في الألفاظ الدالة على الأم في العديد من لغات الأمم . وأما ماعداه من الحروف الأخرى الملتصقة بهذه الكلمات فهو من قبيل الحروف المزيدة أو الملحقة ، ومثال ذلك التصاق الحرف المزيد آ في بعض اللغات بالحرف الأصلي المجرد (م M) ، كما هو الحال في الكلمة اللاتينية MATER والألمانية MUTTUR . والشأن نفسه في التصاق حرف د ، D بالجذر م M وهو مقارب في المخرج الصوتي لحرف T إذ يقترن أيضاً بكلمة (مادر) الفارسية وكلمة (مادري MADRE) الايطالية . وقريب من ذلك حال الكلمة الانجليزية في حرف ذ : (MOTHER) .

ومن جهة ثانية ثمة حروف مغايرة من هذا القبيل وهي مزيدة أيضاً ، منها حرف الراء الملتصق بألفاظ الأم ضمن لغات عديدة ، إذ يكاد يوجد في جميع نهايات كلماتها ، مثل : مادر الفارسية ثم MATER و MUTTUR و : MADRE ، و : MOTHER ، و : MERE . . . أي في الكلمات الدالة على الأم في اللاتينية وفي الألمانية وفي الاسبانية والبرتغالية ، وفي الانجليزية وأخيراً في الفرنسية .

وعلى هذا الغرار نجد في فصيلة الساميات كلمات مشابهة أيضاً داخل الاطار

البنيوي المعهود ، وضمن المفهوم الدلالي المطرد على صعيد الألفاظ التي تنطوي على معنى الأم والأمومة .

وإذا ما أوغلنا في لغات أخرى بدت لنا كلمة ماما معروفة في عدد من لغات أفريقيا وآسيا ، فنحن نراها في البنغالية (أما AMA) ، كما نراها في السواحلية واليوربا وفي لغة شعب أوغندا ، وتعرف باسم (لوغندا) ، وأيضاً في لغة الفولاني والماندي ولغة اللينولو والهوسا والمالديفية [٤] .

وهنالك أقوام آخرون ينطقون بكلمة « أم » قريبة من النطق العربي أو من نطق غالبية الشعوب ، فأهل بنجلاديش ، وكذلك البوذيون في بلاد سيريلانكا ينطقون بلغتهم البنغالية كلمة الأم هكذا : أمّاه AMMAH . وفي لغة المالايالام ما يقارب ذلك أي امّا UMMA ، كذلك في لغة البنجاب ما : MA [٥] .

وبوسعنا ـ تبعاً لما تقدم ـ أن نجنح إلى الاعتقاد من خلال ما أوردناه ، وقياساً عليه ، أن ثمة أقواماً آخرين ممن لم نذكرهم ينطقون كلمة أم على هذا الغرار أو نحوه ، وذلك يتيح لنا القول ان هذه الكلمة عالمية لدى شعوب الأرض ، وتكاد تكون مشتركة في معظم لغاتها ، ولعل هذا الأمر يبدو أكثر غرابة إذا عرفنا أن عدد لغات البشر يبلغ عدة آلاف [٦] .

ومن هذا المنطلق فإن جذر الميم وحده دون سواه هو السائد ، فهو العمدة من الوجهة البنيوية في الدلالة على مفهوم الأم في اللغات المتعددة .

ولما كان الميم حرفاً صامتاً وجب أن يقترن بحرف آخر صائت ، سواء أكان الصائت سابقاً PREFIXE ، أم لاحقا SUFFIXE ، فالسوابق تغلب على اللغات السامية مثل أم وإم العربيتين ، وإيما وإيمو السريانيتين ، ومثل إيم EM العبرية . . . على حين تغلب اللواحق SUFFIXES على ألفاظ الأم في اللغات الهندية الأوروبية وسواها ، إذ تبدأ عادة بالجذر الميمي نفسه مباشرة ، مثل (مادر ، MOTHER ، MADRE ، MERE ، MUTTER ،) . . . وكلها مبني على الجذر (م) أو على المقطع (ما) . . . وقد تعزى غلبة السوابق على ألفاظ

العربية ـ وهي حروف نافلة مزيدة ـ إلى كون الحرف الأخير هو عمدة الكلمة ، وبه ينتهي اللفظ ويختتم . وهذا ما تؤكده الطبيعة الاشتقاقية في كلام العرب التي تجعل الحرف الأخير هو الأظهر والأثبت . مثال ذلك فعل (كتب) ، إذ تتوالد منه الكلمات : يكتب ، اكتب ، استكتب ، مكتوب ، مكتب . . . الخ . ولعل هذه السمة ، أي الثبوت والرسوخ ، هي التي جعلت أكثر اللغويين العرب يؤثرون اعتماد الحرف الأخير بدلاً من الأول في تصنيف معاجمهم الكبرى ، وخلافاً للمعهود في سائر اللغات .

غير أن هذه الظاهرة التي تكاد تكون متفردة في لغة العرب لاتبدو دائمة الاطراد ، فكلمة (أم) وما شاكلها في المعنى تبين وجود بعض التداخل بصدد السوابق واللواحق في بعض اللغات أو بعض اللهجات . ففي العامية المصرية مثلاً يغدو الجذر (م) مقترناً بلاحق هو الألف بديلاً عن الحرف الأول المعهود ، أي عن السابق الذي يلتصق بالجذر الثابت في بداية الكلمة الدالة على الأم ، ويبدو ذلك في كون المقطع (ما) هو البديل للفظ (أم) ، ولعل ذلك يتجلى على نحو أوضح في صيغة النداء (يمّا) ، وشبيه بذلك حال العامية السورية في كون الحرف اللاحق واواً وليس ألفاً في المقطع (موMO) ، ويتجلى هذا أيضاً في صيغة النداء (يامو) ، ويقابلها مناداة الأب بصيغة (يابو) . . . وقد حدث مثل هذا التبادل بين السوابق واللواحق في بعض اللهجات العربية ، إذ انقلبت أم إلى مو ، كما انقلب أب إلى بو ، وغدا هذا المنحى الصوتي سائداً على الألسن عند أهل المغرب العربي في قولهم « بومدين » وهو علم لشخص ، وبورقيبة ، وأيضاً عند سكان حوض الفرات في المشرق مثل قولهم « بوكمال » علما لبلدة « وموحسن » علماً لقرية . . .

والذي تقدم ، عبر هذه المفردات اللغوية المقارنة يفضي بنا إلى القول ان حرف الميم وحده هو دوماً المحور الدلالي لمفهوم الأم في أغلب فصائل لغات الأمم ، على حين لاتعدو سائر الحروف الملتصقة بالجذر الميمي ان تكون سوابق PRE-FIXES أو لواحق SUFFIXES ، هي في جميع الأحوال نوافل أو زوائد قد تثبت في

ألفاظ الأم أو تحذف ، وقد تغيب في تلك الكلمات أو تظهر . .

ذاك هو الاطار البنيوي المعهود الذي يتوضع داخله المعنى الدلالي السائد في لفظ الأم على صعيد كثير من لغات الأرض .

هذا التشارك البنائي ، أو في أدنى الأحوال ، هذا التشابه في الحروف بين الألفاظ الدالة على الأم والذي يكاد يبلغ مستوى التواتر ضمن كثرة بالغة من لغات البشر ، جدير بأن يلفت الانتباه ويسترعي النظر . فكيف يتسنى لنا الآن تفسير هذه الظاهرة اللغوية عند الإنسان ، هذا الحيوان الناطق ، أي المفكر .

هل بوسعنا أن نعزو ذلك إلى قانون التأثر والتأثير الذي يشمل أيضاً ، في جملة ما يشمل ، جانباً من لغات الشعوب ، وما يكون عادة من تأثير بعضها في بعض ؟ في رأينا أنه من المستبعد إلى حد كبير حدوث ذلك على صعيد الألفاظ الدالة على الأم على أقل تقدير ، وإلا كان علينا أن نفترض أن قوماً أو أقواماً نشؤوا أول عهودهم في أحضان أمهاتهم ثم عاشوا حقبة من الدهر معهن ، دون أن يكون في كلامهم منذ فجر وجودهم اسم لهذا الكائن البشري العطوف الذي أنجبهم وأرضعهم ورعاهم وكان محور حياتهم الأولى ، وكيف يكون هناك مسمى أساسي دون أن يستلزم في الوقت نفسه وجود اسم خاص به دال عليه . وهل يصح في هذا الحال قانون التأثر والتأثير ، بحيث ينبغي على أولئك القوم ان يعيشوا آماداً قد تطول ، حتى يتاح لهم أن يقبسوا التسمية من أقوام أخرى ويطلقوها على عنصر جوهري أصيل في كيانهم الاجتماعي الأول . . ؟ وبافتراض وجود جماعة مؤثرة وأخرى متأثرة ، فالسؤال يظل قائماً ، أي كيف اهتدت هذه الجماعة المؤثرة الأولى أو الرائدة إلى النطق بكلمة أم ؟ . .

الحق ان المبدأ السائد (الحاجة أم الاختراع) ينطوي على الوجاهة كلها ولاسيما في مجال اللغة ، إذ من الطبيعي لدى وجود الشيء ان يتلبس اسما بعينه فيلتحم به ويلزمه ، وبذلك يتم التطابق بين الاسم والمسمى ، فيتكاملان بنيوياً ودلالياً . وكما أنه لايوجد في المدركات كائن بلا اسم يسمه ويحدده ويؤطره ، كذلك لا وجود أيضاً في العقل لاسم مجرد دون مسمى يقوم به ويتجسَّد فيه .

(٢)

والآن ، هل المصادفة إذن هي التي جعلت لمدلول الأم نطقاً متقارباً على ذلك النحو الذي ينطوي عليه العديد من ألسنة البشر ؟ صحيح أن ثمة ألفاظاً بعينها تبدو من حيث بنيتها ودلالتها متآخية بين لغتين أو بين عدد محدود من اللغات ، مثل كلمة قَطَّ أو قَطعَ وكلمة CUT الانجليزية ، ومثل كلمة كسر وكلمة CASSER الفرنسية ، ومثل كلمة قِط وكلمة CAT الانجليزية . . الخ . غير أن هذه الحالات تبقى في النهاية ضيقة النطاق لاتتعدى مجال الاحتمالات أو المصادفات . وبوسعنا القول على نحو يقارب اليقين ان عامل المصادفة في هذا الشأن غير قادر على تفسير انتشار جذر الميم إلى هذا المدى من الكثرة البالغة في لغات البشر .

كذلك ، وعلى صعيد آخر ، هل مرد هذا التشابه النطقي في لفظ الأم بين اللغات إلى عامل الاكتساب أو التلقي ؟ يبدو لنا أن الطفل الرضيع ، حين ينطق بالمقطع (ما) أو المقطع المكرر (ماما) منادياً أمه خلال الأشهر الأولى من عمره ، فإن نطقه هذا لايمكن ان يكون لفظاً من الألفاظ التي يكسبها من محيطه الخارجي ، أي من أمه أو ممن حوله في أسرته . وان صح ذلك ينجم أمامنا سؤال آخر يعيدنا إلى نقطة البدء ، وهو كيف اتفقت الأمهات لدى الأقوام والشعوب على وضع اسم واحد تقريباً هو ماما أو أم أو نحو ذلك ثم اكتسبه منهن أطفالهن ؟ . يبدو جلياً أن العفوية والفطرة هما وحدهما اللتان تتحكمان في مسلك الطفل الرضيع في هذه المرحلة المبكرة من نموه وليس التلقي أو الاكتساب .

وتأسيساً على ما تقدم يغدو من اليسير على الباحث أن يستبعد في هذا الصدد عامل المصادفة ، وأيضاً العامل الاجتماعي أو الاكتسابي ، وعامل التلقي والتقليد في تفسير وجود جذر الميم المشترك في جمهرة اللغات السائدة . وهكذا لابد لنا أن نجنح في آخر الأمر إلى الاعتقاد بأن التعليل الوحيد الذي يمكن قبوله أو الركون إليه ، والذي بوسعه أن يفسر وجود الجذر الميمي في أسماء الأم على هذا الصعيد الواسع من لغات البشر انما هو التعليل الفيزيولوجي ـ الطبيعي ، أي الناجم عن

تكوين أعضاء الإنسان نفسه ، وعن طبيعة الطفل الرضيع وآلية امتصاصه اللبن من ثدي أمه . ان الطفل الرضيع في هذا الطور من حياته ومن تكونه الجسدي لايمتلك من حيث الأساس إلا أدنى أدوات الكلام . وفمه ـ وهو جهاز النطق ـ لايحتوي أية أسنان نابتة ، ولما يستكمل تكوينه بعد . والحروف المحدودة التي يتيسر له في البدء ان يلفظها هي التي تنفرج عنها الشفتان ، مثل حروف الميم والباء والفاء ، على حين لايستطيع أن ينطق بحروف أخرى تخرج من تحت اللسان أو من خلال الأسنان ، أو من بعض أطراف الفم وأقاصيه كالحروف اللثوية ، مثل : الثاء والذال والظاء ، أو حروف الزلق كالراء واللام والنون ، أو بعض حروف الحلق كالعين والحاء والخاء ونحو ذلك من سائر الحروف ، إذ لا يستطيع الطفل أن يتلفظ بها إلا في مراحل تالية من نموه الفيزيولوجي المتكامل .

وعلى ذلك ، إذا كانت الحروف الشفوية هي أسبق سائر الحروف نطقاً لدى الطفل الرضيع ، وكذلك لدى الانسان الغابر في أحقابه الموغلة في القدم التي تمخضت عن نطقه بالحروف الايمائية أو الشفوية ، فان حرف الميم هو الأسبق من بينها على الإطلاق . بل اننا نذهب إلى مدى أبعد حين نقرر أيضاً أن بعض الحيوان قادر وبيسر على نطق حرف الميم بفضل سهولة مخرجه من الفم ، ومن هذا القبيل الغنم والماعز التي تدأب على التفوه بالمقطع الصوتي (ماء أو ماه أو ماع . .) ، وهنا نلمس بإعجاب إحدى لفتات الجاحظ البارعة حين قال[٧] : « وأما الغنم فليس يمكنها أن تقول الا « ماء » ، ثم يقول بذكاء لماح : « والميم والباء أول ما يتهيأ في أفواه الأطفال ، كقولهم ماما وبابا ، لأنهما خارجان عن عمل اللسان ، وانما يظهران بالتقاء الشفتين » . وقد استطاع مؤخراً أحد هواة الكلاب في الولايات المتحدة الأمريكية أن يدرب كلبه على النطق بالمقطع الصوتي المضاعف (ماما) كما ينطق به الطفل البشري تماماً ، وقد أنطقه بذلك على ملأ من الناس ووسط استحسانهم واعجابهم[٨] . وهذا يعني أن النطق بالميم معهود لدى بعض الحيوانات وميسور لدى بعضها الآخر ، ولعله الحرف الوحيد دون سائر حروف الهجاء الذي يتمتع بهذه الظاهرة الفريدة .

ونحن حين نقرر ان حرف الميم هو الأسبق نطقاً بين حروف الهجاء لدى الطفل وأيضاً لدى الإنسان الغابر والأقوام البدائية ، فإننا نعني حروف الهجاء الصامتة التي كانت الميم منطلقها الأول لدى الرضيع ، إذ لابد في هذا الصدد ان نستبعد من مجالنا مجموعة الحروف الصائتة أو ما سماه بعضهم الحروف الهيجانية ، أي حروف العلة ، فهي الأسبق بطبيعة الحال على الاطلاق ، لأنها لا تعدو ان تكون لدى الوليد أو الرضيع ، وكذلك لدى الإنسان البدائي أصواتاً عفوية أو صيحات انفعالية لاتكاد تختلف في شيء عما يصدر من مثلها عن سائر الأحياء في عالم الحيوان ، ومثل هذه الحروف الصائتة تند عن الطفل خلال ضحكه وبكائه ، بل انها لتخرج من فمه منذ لحظة خروجه من رحم أمه وصرخته المعهودة لدى انتقاله إلى المحيط الخارجي المغاير .

فالميم المتبوعة بحرف مد أي « ما » هي عند الرضيع مجرد مقطع بسيط يتفوه به بسهولة ويسر اعراباً عن حاجة عضوية لديه ، وذلك حين يطلق من فمه بعض الهواء الحبيس على نحو ضاغط عبر الشفتين ، فهو تعبير صوتي أولي يتخذه الطفل وسيلة إلى إشعار أمه بالرغبة في الغذاء .

ولما كانت الميم في طليعة الأحرف الأولى الملفوظة في حياة الإنسان لأنها الأسهل نطقاً ، فقد نجم عن ذلك أنها أيضاً حرف أصيل راسخ في معظم لغات البشر سواء أكانت هذه اللغات قديمة أم حديثة ، بدائية أم متطورة ، على حين لاتنطوي حروف أخرى عديدة على مثل هذا الشمول ، فتكون في لغة ولا تكون في أخرى . وثمة أمم لاتعرف في لغاتها وجوداً لحرف الراء كما في لغة أهل الصين ، أو لحروف سواه في لغات أخرى مثل العين والغين والثاء والخاء والذال والصاد والقاف . . . إلخ . كذلك لا تعرف لغات أخرى حروفاً مثل G أو V أو P أو E أو U . . . الخ ، وما ذلك إلا لأن نطقها ينطوي أيضاً من الناحية الفيزيولوجية على صعوبة أكبر من النطق بسائر الحروف .

وقد فطن الأصمعي منذ القديم إلى هذه الظاهرة في بعض لغات عصره ومغايرتها أحياناً في عدد من حروفها للعربية فقال [٩] : ليس للروم ضاد ، ولا

للفرس ثاء ، ولا للسريان ذال » . وعلة ذلك في رأينا صعوبة نطق هذه الأحرف وكون مخرجها غير يسير من الفم اذا قيست بسائر الحروف . وآية ذلك أن الطفل في أية أمة ليس بوسعه في أول عهده ان ينطق بأكثر هذه الحروف المذكورة ، أي غير المطردة في كثير من لغات البشر . من هذا القبيل حرف الراء ، اذ لايتيسر نطقه لدى الطفل إلا بعد حين من نموه واكتمال جهاز النطق لديه . بل قد يتعذر على الكبار النطق بالراء على النحو القويم ، فيما يعرف باللثغة ، وأشهر هؤلاء عند العرب واصل بن عطاء المعتزلي الذي كان يحرص على إخفاء هذا العيب لديه ويجهد في تجنب النطق بالراء في كلامه . وقد عجب الجاحظ من ذكائه واقتداره في هذا الصدد وأورد له خطبة كان ارتجلها دون ان يرد فيها اطلاقا كلمة تنطوي على حرف الراء . وقد فصّل الجاحظ القول في هذه الظاهرة اللسانية ضمن كتابه البيان والتبيين وكان مما قاله[١٠]: « وأما اللثغة التي تقع في الراء فان عددها يضعف على عدد لثغة اللام ، لأن الذي يعرض لها أربعة أحرف » . ثم يبين الجاحظ ان منهم من يجعل الراء غينا ، ومنهم من يجعل الراء ذالا أو ظاء ، ويأتي بمثال من شعر عمر بن أبي ربيعة في قوله :

ليت هنداً أنجزتنا ما تعد وشفت أنفسنا مما تجد
واستبدت مرة واحدة انما العاجز من لايستبد

فيذكر أبو عثمان أن بعضهم يلفظ كلمة (مرة) مية أو مغة أو مذة أو مظة . غير أن الجاحظ فاته أن يذكر حالة خامسة من اللثغة وهي جعل الراء لاما . فالألثغ ، لعيب في نطقه ، حين يعجز عن التلفظ بالراء يعمد إلى ما هو قريب من مخرجها فيلفظها لاماً ، وهذا ما يعمد إليه الأطفال بسبب قصور نطقهم في أوائل عهدهم بالكلام ، وكذلك حال أهل الصين عامة في كلامهم . وقد أتيح لي أن أجد جمهرة منهم من دارسي العربية تلفظ هذا الحرف لاماً ويتعذر عليها النطق بالراء على النحو المنشود[١١] . وعلى ذلك يمكن ان نضيف إلى مثال الجاحظ ان كلمة (مرة) في البيت قد ينطقها الألثغ أو نحوه لاماً ، أي (ملة) ، وما يؤكد صعوبة النطق بالراء أن ثمة شعوباً عديدة تضم لغاتها هذا الحرف ولكن

كلا منها تلفظه على نحو خاص يغاير بطبيعة الحال لفظ العرب له . فالاسبان والطليان يشدون ألسنتهم إلى أعلى حلوقهم بقدر من التوتر لتخرج الراء قوية جلية ، على حين نجد هذه الراء لدى الفرنسيين لطيفة خفيفة تقارب حرف الغين ، أما الانجليز فيكاد يغيب هذا الحرف من لغتهم المنطوقة ، وكأنهم يبتلعونه عند الكلام . كذلك يصعب على العربي ان ينطق ببعض الحروف الأجنبية التي ليس لها مثيل في لغته إلا بعد مران طويل ، ولعل الأمر أكثر صعوبة لدى غير العرب حين يحاولون النطق ببعض حروف العربية مما ليس له نظير عندهم . بل ان العرب أنفسهم لاينطقون بعض حروف لغتهم العربية على النحو المنشود تبعاً لأقاليمهم وبيئاتهم مثل حرف الضاد والجيم والقاف . . . [١٢]

كل ما تقدم يفضي بنا إلى ما توصل إليه علم اللغة ولاسيما في مجال الدراسات اللسانية LINGUISTICS والبحوث الصوتية PHONETICS ، وفحوى ذلك أن الأقوام الغابرة في طور نشوئها السحيق ، شأنها كشأن الأطفال ، لم تعرف في بواكير حياتها سوى عدد ضئيل من الحروف ، وهي الحروف الجوفية أو الصوتية أو حروف العلة ، وذلك في مرحلة الصيد الغابرة التي استمرت من بداية العصر الجليدي حتى قرابة بضعة عشر قرناً قبل الميلاد ، وقد تولدت لدى انسان ذلك العصر بعد آماد طوال بعض الحروف التي تقع مخارجها الصوتية قريباً من الشفتين لسهولة النطق بها وهي م ، ب ، ف ، د ، حين أخذ يلفظ ماما ، بابا ، دادا[١٣] . . ففي مرحلة تالية نشأت لدى الإنسان القديم حروف أخرى لعل أولها كان حرف الفاء القريب من الشفة السفلى ، ولم يستكمل ذلك الانسان سائر حروف الهجاء إلا بعد آماد أخرى حين دخل مرحلة الرعي ، فأبدع حروفاً جديدة أكثر تعقيداً ، لتلبي حاجاته المستحدثة وتعبر عن تجاربه التي كانت تغتني باطراد .

- ٣ -

واعتماداً على ما سبق التوصل إليه من أن حرف الميم يحتل حيزاً واضحاً ضمن

زمرة الأحرف السهلة النطق التي عرفها الطفل كما عرفها الانسان الغابر في طور نشوئه قبل ان يتمكن هذا أو ذاك من الاهتداء إلى نطق سائر حروف الهجاء ، فإننا نجد أنفسنا أخيراً في مواجهة سؤال ملح آخر في هذا الصدد وهو : لماذا كان حرف الميم وحده وليس حرفاً آخر سواه من زمرته كالباء والدال والفاء ، وما إلى ذلك من بواكير الحروف السهلة النطق ، ليكون هو الجذر الدال على الأم في أصل اللغة . وهل كان وجود الميم في الكلمات الدالة على الأم في لغات البشر مجرد ظاهرة عارضة ؟ . . .

نحن نجنح إلى الاعتقاد بأن وجود الجذر « م » المتمثل في المقطع « ما » مفرداً أو « ماما » مضعفا انما يعني قيامه بوظيفة محددة عند الطفل الرضيع لزمته منذ الخليقة وصاحبته من الأزل . وهذه الوظيفة هي تلبية حاجة عضوية أساسية لديه ، وهي اشباع غريزة حفظ الذات نتيجة الشعور بالجوع والعطش ، وعندئذ يعمد الرضيع إلى الاعراب عن حاجته بأن يظهر رغبته بطلب الغذاء ، أي امتصاصه اللبن من ثدي أمه ، فيقوم بزم شفتيه ، أي شد احداهما إلى الأخرى تعبيراً عن رغبته في تناول غذائه ، وبذلك يكون قد لفظ على نحو عفوي وغريزي حرف الميم . . « فآلية لفظ الميم وهو حرف شفوي أو ايمائي ، كما سبق بيانه ، تنطلق من الشفتين حبساً وانفراجاً في حركة ايمائية تمثل فعل المص والرضاع والحلب والاستخراج من الجوف [١٤] » .

فالطفل في هذه الحالة التعبيرية حين زم شفتيه ثم فتحهما ، على ذلك النحو المفرد « ما » أو المتوالى بين الفتح والإطباق « ماما » قد قام سلفا بإحداث حركة الشفتين ، بقصد توليد صوت الامتصاص المعهود ، أي الصوت الذي ينجم عن انفراج الشفتين واطلاق الهواء من الفم ، بعد أن كان حبيساً مدة لحظة أو نحوها ، وهذه هي في حقيقة الأمر وسيلة نطق الانسان بحرف الميم .

وهكذا فإن الرضيع كلما اعتراه الجوع والعطش عبّر عن حاجته إلى لبن أمه بتقليد آلية الامتصاص من خلال معادلها الموضوعي في أذنه ، أي بنطقه حرف الميم ، وهو في حقيقة الأمر انما ينادي أمه بلفظه المقطع « ما » ويطلب لبنها في

الوقت نفسه . ومعنى ذلك أن الطفل الرضيع في هذا الطور المبكر من مرحلة نشوئه انما يستخدم هذا الجذر الصوتي قاصداً به اللبن وصاحبة اللبن معاً دون تمييز ، وعلى نحو من التداخل المبهم . إذ من الطبيعي آنئذ أن لاتكون لدى الطفل في هذا الطور قدرة على الفصل بين العنصرين الأساسيين في عالمه البسيط المحدود وهما اللبن والأم ، لأنهما بالنسبة إليه متلاحمان متمازجان متحدان . ولهذا كان من الطبيعي ان يكونا في مدارك الطفل المحدودة ـ إن صح أن نعدها مدارك ـ عنصراً واحداً يقتضي منه تبعاً لذلك اسماً واحداً هو « ما » .

ثم لايلبث هذا الطفل الرضيع في مرحلة تالية من نموه ان يركّب مع الجذر « م » مقطعاً لاحقاً فيلفظ المقطع « مام » أو « مم » على طريقة التضعيف أو التكرار . وبذلك تكون هذه (الكلمة ـ المقطع) لسهولة التلفظ بها باكورة نطق الإنسان وفاتحة لغته ، كما كان حرف الميم بكر حروفه ورائد عباراته .

وانه لما يقوّي هذه المقولة التي ترتكز إلى فيزيولوجيا الطفل وامتصاصه ، إلى جانب احداث صوت معين تقليداً لآلية هذا الامتصاص في الطبيعة ، بوسعنا القول اضافة إلى ما سبق ان التلفظ بالجذر (الميم) لدى الطفل انما يعتمد في جانب منه على تقليد صوت المص . فهذا الصوت يحدث بطبيعة الحال في إثر وضع الرضيع حلمة الثدي في فمه وشروعه في ابتلاع اللبن . غير أن ما نلحظه بعد ذلك ان الطفل يعمد إلى افتعال هذا الصوت وهو بعيد عن ثدي أمه ، أي انه يتكلم بأن يلفظ المقطع (ما) منادياً به أمه ، فما يفعله هو محاكاة حالة يطلب استعادتها ووضع يبغي استرجاعه ، وهذا الأمر في جوهره هو أصل من أصول نشوء اللغة لدى الانسان .

وهذه الظاهرة العفوية الغريزية لدى الطفل الرضيع تشكل مصداقاً لاحدى النظريات البارزة في تفسير منشأ اللغة عند الانسان وهي نظرية محاكاة أصوات الطبيعة . أي أنَّ تلفظ الطفل بالمقطع « ما » وهو جذر كلمة « أم » انما هو في أصله محاكاة لآلية امتصاصه للثدي . انها محاكاة ذاتية داخلية لصوت الطفل نفسه وقت الرضاع وليست محاكاة لصوت آخر خارج عن ذاته . على ان هذه

المحـاكاة للأصوات تتنامي مع الزمن ومع نمو الطفل خلاله ، وتتسع لتشمل أصواتاً عديدة يحس بها الطفل أولاً ، ثم يقارب ادراكها بعد حين . ولعل من طريف ما أشار إليه الجاحظ في صدد نزعة الطفل إلى اغناء لغته عن طريق محاكاة الأصوات ، ما رواه من أنه « قيل لصبي من أبوك ؟ فقال : وَو ، وَو ، لأن أباه ـ كما علق الجـاحظ ـ كان يسمى كلبا [١٥] . وبـوسعنا أن نجد نظيراً لما لاحظه الجـاحظ في أمثلة عديدة من واقع لغة أطفالنا اليوم حين ينادون الكلب بلفظ (عَو) والقط بلفظ (نَو) والخروف بلفظ (ماع) . . الخ .

واذا كان تلفظ الانسان الأول لهذا الحرف « الميم » انما يرتكز أصلا إلى ظاهرة فيزيولوجية قوامها الارتباط بغريزة الجوع والعطش والتعبير عن ذلك بحركة المص بوسيلة الفم ، فانه لايبعد عندئذ أن نرجع أيضاً فعل « مص » نفسه المرتكز إلى الجذر الميمي أيضاً ، في اللغة العربية على الأقل ، إلى هذا الأصل البعيد نفسه . اذ أن مرد الأمر في هذا الفعل « مص » كما في شأن المقطع « ما » أو « ماما » نفسه قد يعود إلى محاكاة الطفل للصوت الناجم عن آلية المص ، وفقاً لنظرية المحاكاة في نشوء اللغة .

ولعل من المفيد هنا استكمالا لهذا الظن أننا نلاحظ أيضاً في اللغة العربية كون كلمة « ماء » ترتكز إلى جذر الميم كما هو الحال في بنية كلمة « أم » . وقد يعني هذا أيضاً ان الرضيع حين يجوع أو يعطش (ولا فرق لديه عهدئذ بين العطش والجوع) . فانه يلفظ كلمة (ما) مقصورة ، قاصداً إلى ماء الثدي . ولعل لفظ (ماء) في العـربية بانطوائه أيضاً على الجذر الميمي نفسه انما يشارك في أهميته البنيوية والدلالية لفظ (أم) فكلاهما أصيل ، وكلاهما سبب الحياة . . .

ان كل هذا يتيح لنـــا قدراً وافياً من الاعتقـاد بأن حرف الميم ، من حيث التحامه الشديد بعالم الطفولة ، واتصاله الوثيق بأسباب بقاء الطفل متمثلة في دلالات الأم واللبن والماء ، انما هو حرف متأصل في كيان الانسان ، متجذر في لغات البشر . أليس بوسعنا بعد ذلك ، وفي ضوء ما تقدم ان نقول بثقة : إن المقطع (ماما) اختراع انجزه الطفل منذ الأزل ، وسوف يدأب على ابتداعه إلى الأبد .

(٤)

وعلى هذا الغرار يمضي الطفل في إغناء لغته تبعاً للغنى المتزيد في تجاربه . فهو لا يلبث ، بعد أن يقارب استكمال سنته الأولى ، حتى يبدأ في حال شعوره بالعطش وحاجته إلى الماء ، إلى احداث صوت من شفتيه يقلد به صوت آلية الشرب ، وليس الامتصاص . وهو صوت قريب من حرف (الباء) وذلك بأن يحبس بعض الهواء داخل فمه ثم يدع شفتيه تنفلقان عنه بشكل ضاغط . وهذا ما يؤدي إلى النطق بحرف الباء المراد ، وهو شقيق الميم وشريكه في زيادة الحروف المنطوقة في حياة الانسان . وقد سبقت الإشارة في هذا الصدد إلى قول الجاحظ « الميم والباء أول ما يتهيأ في أفواه الأطفال كقولهم ماما وبابا[١٦] . . »

ولعل النطق بهذا الجذر الصوتي المبكر عند الانسان هو ما يفسر أيضاً وجود حرف الباء في عدد من اللغات السامية واللاتينية للدلالة على تناول الماء ، كما هو الحال في لغة العرب ، كفعل « شرب » و« عب » وأيضاً فعل « غب » الذي يعني شرب الابل يوماً وعدم شربها يوماً تالياً . كذلك نجد الباء نفسها في فعل شرب بالفرنسية BOIRE . . .

ويبدو على هذا الصعيد أيضاً أن في طليعة الكلمات الأولى التي يبدأ الطفل بتلفظها بعد كلمة ماما هي كلمة بابا باعتبار النطق بالباء يسيراً على الطفل ، وكذلك الفاء لأن هذه الأحرف الثلاثة أي الميم والباء والفاء هي جميعاً حروف شفوية وهي ـ كما تبين لنا ـ أسهل حروف الهجاء نطقاً وأسبقها خروجاً من فم الانسان .

ولعل هذا أيضاً ما يفسر وجود حرف الباء وشقيقه حرف الفاء في العديد من اللغات سامية أو هندية ـ أوروبية مثل أب العربية و : أبا ABA الآرامية و : أب AP العبرية ، وباتر BATER اللاتينية ، ومنها بير PERE الفرنسية ، وبادري BADRE الايطالية والأسبانية . . ثم فاذر FATHER الانجليزية . . .

كذلك يدعى « الأب بابا BABA في اللغة البنغالية وفي بعض مناطق الهند

وبنجـلاديش . كما توجد هذه الكلمة في اللغة التركية وفي السواحلية وفي لغة تنزانيا وكينيا وزائير وشرق افريقية ، وأيضاً في الملايوية ، وفي اليوربا والهوسا بنيجيريا . .[١٧] » .

وقد فطن اللغويون العرب في القديم إلى أصالة هذا الحرف ، أي الباء في بواكير كلام الطفل ، ففي لسان العرب « بأبأ الصبيّ أبوه ، اذا قال له : بابا . وباباه الصبي ، اذا قال له : بابا . والبأباة أيضاً معناه ترقيص المرأة ولدها . . » وهذا الترقيص ، كما هو معلوم ، مصحوب عادة بنطق الأم بكلمة ماما أو بابا على مسمع رضيعها .

واذا كانت ثمة حصيلة لكل ما تقدم بصدد بنية لفظ الأم في اللغة العربية وفي سائـر لغـات البشر فهي ان هذه الكلمـة تفضي بنا من وجهة علم الصوتيات والفيزيولوجيا وعلم النفس والتاريخ إلى مقولتين متكاملتين متلاحمتين هما : بكرية جذر الميم بين حروف الهجاء المنطوقة ، وفطرية كلمة الأم بين الألفاظ الأصيلة .

الهوامش :

(١) انـظر بحث « الحـرف العربي ، بين الأصالة والحداثة » بقلم حسن عباس ، مجلة « التراث العربي » الفصلية ، العددان ٤٢ ـ ٤٣ ، كانون الثاني (يناير) ـ نيسان (ابريل) ١٩٩١ ـ اتحاد الكتاب العرب ، دمشق .

(٢) المرجع نفسه ، بحث حسن عباس : « الحرف العربي بين الأصالة والحداثة » .

(٣) حرف التاء هنا سقط من هذه الكلمة الفرنسية المتداولة MERE بعد أن كان موجوداً في الأصل اللاتيني MATER ، ولعله هو ، أو ما يقاربه كحرف الدال قد سقط أيضاً من الكلمة الأرمنية (ماير) . ومعنى ذلك أن هذا الحرف أي (T) ليس عمدة في ألفاظ الأم في كثير من اللغات ، وهو على أية حال يعاود الظهور في صيغة اسم المصدر لهذه الكلمة في اللغة الفرنسية وهي MATERNITE أي الأمومة ، وأيضاً في الصيغة الوصفية عند النسبة إلى أم في لفظ MATERNEL أي أمومي .

(٤) انظر مقالة : « هل كلمتا أب وأم غير عربيتين » بقلم الدكتور شوقي النجار ، المجلة العربية ، الرياض ، العدد ٨٥ تشرين الثاني (نوفمبر) ٨٤ .

(٥) انـظر أيضـاً مقـاله « هل كلمتا أب وأم غير عربيتين » بقلم الدكتور شوقي النجار ، المجلة العربية ، الرياض ، العدد ٨٥ ، تشرين الثاني « نوفمبر » ١٩٨٤ .

(٦) يقدر عدد لغات البشر بما يقارب خمسة آلاف لغة أو أكثر من ذلك . وفي بلاد الهند وحدها ٨٤٥ لغة .

(٧) البيان والتبيين ١ : ٦٢ تحقيق عبد السلام هارون . القاهرة ١٩٦٨ .

(٨) تم عرض هذا المشهد صورة وصوتاً في التلفاز الأمريكي وبعدئذ في قنوات خارجية أخرى ، وقد بثه التلفزيون السوري من دمشق في ٩ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٩١ وذلك ضمن برنامج دوري ذائع يحمل اسم (طرائف الفيديو المنزلي الأمريكي) : AMERICA's FUNNIEST HOME VIDEOS

(٩) البيان والتبيين ، الجاحظ ١ : ٦٥ ، تحقيق عبد السلام هارون ١٩٦٨ .

(١٠) البيان والتبيين ، الجاحظ ١ : ٣٤ تحقيق عبد السلام هارون ١٩٦٨ .

(١١) لمست هذه الظاهرة حين تم ايفادي من جامعة حلب عام ١٩٧٩ إلى معهد اللغات في بكين بقصد تأهيل مجموعة من دارسي العربية وتقويتهم فيها نطقاً وكتابة ، فعلى حين تمكن بعضهم من نطق الراء على وجهها المنشود بعد محاولات عديدة ، فإن بعضهم الآخر لم يستطع ذلك قط ، وقد لفظوا كلمات مثل عمر وجرح ورسم . . هكذا : عمل وجلح ولسم ، كما لفظوا عبارة الجمهورية العربية السورية هكذا : الجمهولية العلبية السولية .

(١٢) بعض السودانيين مثلا ينطقون الضاد قريبة من الدال وكثير من عرب الجزيرة والخليج وسكان العراق وبعض أهل الشام والمغرب يلفظونها ظاء والعكس أحياناً صحيح . وشبيه بهذا حرف الطاء الذي يلفظه بعضهم قريباً من التاء . كذلك حال حرف الجيم في لهجة أهل القاهرة واليمن ، وأيضاً حال حرف القاف الذي يتعدد نطقه على ألسنة العرب في أقطارهم المتباعدة حتى ليبلغ نحو سبع حالات تتراوح بين حرفي الهمزة والكاف .

(١٣) مقالة « الحرف العربي والشخصية العربية » بقلم حسن عباس . مجلة الكاتب العربي ، العدد ٦ ، دمشق ١٩٨٣ .

(١٤) الحرف العربي بين الأصالة والحداثة ـ حسن عباس . مجلة التراث العربي ، كانون الثاني (يناير) نيسان (ابريل) ١٩٩١ ـ اتحاد الكتاب العرب ـ دمشق .

(١٥) البيان والتبيين ١ : ٦٤ تحقيق عبد السلام هارون ، القاهرة ١٩٦٨ .

(١٦) البيان والتبيين ١ ـ ٦٢ ، تحقيق عبد السلام هارون ، القاهرة ١٩٦٨ .

(١٧) مقالة « هل كلمتا أب وأم غير عربيتين » بقلم د. شوقي النجار . « المجلة العربية » العدد ٨٥ ، نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٨٤ .

المصادر والمراجع

- الأصوات اللغوية ، الدكتور ابراهيم أنيس ـ دار النهضة العربية ـ القاهرة ١٩٦١ .
- البيان والتبيين ، عمرو بن بحر الجاحظ ـ ج١ . تحقيق عبد السلام هارون ـ القاهرة ١٩٦٨ .
- الحرف العربي بين الأصالة والحداثة ، حسن عباس ، مجلة التراث العربي ، دمشق ، يناير ابريل ١٩٩١ .
- الحرف العربي والشخصية العربية ، حسن عباس ، مجلة الكاتب العربي ـ دمشق ، العدد ٦ ـ ١٩٨٦ .
- دارسة الصوت اللغوي ، الدكتور أحمد مختار عمر ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٧٦ .
- علم اللغة العام ، الأصوات ، الدكتور كمال بشر ـ دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٠ .
- لسان العرب ، ابن منظور (أمم) ، (أبب) ،
- المدخل إلى علم الأصوات ـ صلاح الدين حسين ـ دار الاتحاد العربي ـ القاهرة ، ١٩٨١ .
- نظرية حق الأم ، اريك فروم ـ ترجمة محمود منقذ الهاشمي ، مجلة المعرفة ، دمشق ، فبراير ١٩٨٣ .
- هل كلمتا أب وأم غير عربيتين ، الدكتور شوقي النجار ـ المجلة العربية ، الرياض ، نوفمبر ١٩٨٤ .